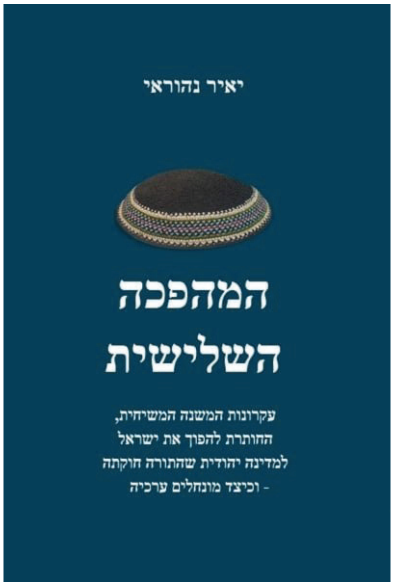

نبيه بشير *

«الثورة الثالثة» ليائير نهورئي.. عن مخطط الصهيونية الدينية لبلوغ «دولة الشريعة»

يائير نهورئي، الثورة الثالثة: أصول النظرية المسيانية الساعية إلى تحويل دولة إسرائيل إلى دولة يهودية دستورها التوراة، وكيف تورّث قيمها، [القدس]: إصدار شخصي، ٢٠٢٢، ٣٠٦ صفحات من القطع المتوسّط. [بالعبرية]

يضاف هذا الكتاب إلى قائمة إصدارات ترصد مساعي فئة أساسية في تيار الصهيونية الدينية (وهي مساعٍ دؤوبة، بعضها خفي وآخر صريح) لإحداث انقلاب في نظام الحكم في إسرائيل لتتحوّل إلى دولة دينية تستند كليًا إلى كل من التوراة والأحكام المستنبطة منها (المشناه) ومناقشة الحاخامات السلف لها (التلمود) ورجال الدين اليهود في عصرنا الحديث. لكن لكل إصدار من قائمة الأدبيات هذه إضافته النوعية، وسوف نتوقّف بصورة خاصة عند الإضافة النوعية لهذا الكتاب الذي نحن بصدد مراجعته.

رصدت أدبيات صحافية وأكاديمية البذور الأولى لمحور الكتاب الرئيس، منذ مطلع الثمانينيات وحتى مطلع التسعينيات، ككتاب داني روبنشتاين[1] وأطروحة دكتوراه لجدعون أران،[2] إلى جانب مقالات أكاديمية بالإنكليزية لباحثين أهمهم إليعازر دون يحيا ودوب شفارتس وآبي ساغي وإيهود شبرينساك، وركّزت جميعها على حركة غوش إيمونيم المسيانية الاستيطانية، وما يطلق عليه "ثورة الشباب" في

---

* باحث متخصص في الدراسات اليهودية، ومحاضر في الدراسات الإسرائيلية في جامعة بير زيت.

حزب الصهيونية الدينية المركزي (المفدال) في مطلع السبعينيات. أما رصد المحاولة منذ منتصف التسعينيات ومطلع القرن العشرين فقد جرى على يدي صحافيّين، وبصورة خاصة على يدي الصحافي يائير شيلغ؛[3] أما صاحب هذه المراجعة، فقد رصد في أحد كتبه هذه المحاولة بعد أن وضع فصولًا عدة تطرح السياقات المختلفة التي ساهمت في بلورة تيار الصهيونية الدينية والتحوّلات الجوهرية التي مرّ بها، وسلّط الضوء على سيرورات تطوّر التيار قيد التشكّل والمتمثّل في ما بات يطلق عليه حاليًا "الحريدية الصهيونية" أو "الحريدية القومية" (باختصار: حردل).[4]

وقد أكّدت على هذا الموضوع في أبحاث عدة، وقد جاء في آخرها ما يأتي:

وفق العديد من المراقبين، يبدو أن التيار الصهيوني الديني يعتمد مخططًا إستراتيجيًا، منذ نهاية السبعينيات وحتى يومنا، يرمي إلى التأثير على الوعي اليهودي بعامة والإسرائيلي بخاصة، من خلال أنشطته وغرس موظفين ينتمون إليه في مراكز صنع القرار في مختلف المؤسّسات وتوليه وزارات محدّدة، أهمها وزارة المعارف، للتأثير على الأجيال القادمة عبر صياغة المعارف التي تنكشف إليها وبلورة ذاكرتها التاريخية وهويتها، ووزارتي الزراعة والبناء والإسكان لإقامة المستوطنات وتعزيزها،[5] ووزارة الداخلية لأنها الطرف الأهم في كل ما يتعلق بتحويل الميزانيات المختلفة والمنح والتخطيط للبلدات والمستوطنات الجديدة. على سبيل المثال، جاء في شهادة الباحث زئيف دروري، خلال مقابلته مع أحد مؤسّسي حركة غوش إيمونيم وعضو الكنيست حنان فورات، أن هذا التيار قد وضع إستراتيجية جديدة منذ مطلع الثمانينيات ترمي إلى دفع الأبناء المنتمين إلى التيار القومي الصهيوني للانضمام إلى الجيش، والعمل في أجهزة الإعلام، بغية إجراء تغييرات عميقة في مواقع صنع القرار في مؤسّسة الجيش والإعلام، كخطوة نحو تغيير الوعي والثقافة السياسية في إسرائيل.[6] وفي الحقيقة، فقد نجح هذا التيار نجاحًا باهرًا في جميع أهدافه لا بل وتخطّى جميع هذه الأهداف، كما سنلمس في معرض الدراسة الحالية. فقد حقّق مشروع الاستيطان نجاحات كبرى، ونجح التيار في تطعيم الخطاب السياسي العام في إسرائيل بالقيم والتصوّرات والمفاهيم الدينية، وجرّ أجزاء واسعة من المجتمع الحريدي المناهض مبدئيًا للصهيونية إلى المشاركة الفاعلة في مشاريع الاستيطان والتقرّب من المجتمع الإسرائيلي العام بواسطة الخدمة العسكرية أو الخدمة المدنية، وفرض الروايات والتصوّرات الدينية في مناهج التربية والتعليم الحكومية وغير الحكومية، واحتلال مناصب مرموقة في وسائل الإعلام المركزية وإنشاء وسائل وقنوات إعلامية مؤثّرة، واستجلاب الدعم المادي الهائل من سكان الولايات المتحدة اليهود وغير اليهود من أجل تمويل أجزاء واسعة من نشاطاتها.[7]

على الرغم من ذلك، يجب التأكيد على أن هذا التحليل، ومثله من التحليلات لباحثين ومراقبين آخرين، لم يستند إلى مواد أولية واضحة يمكن أن تدعم بصورة قوية الطرح السابق. وهذا بالضبط ما يوفّره لنا الكتاب الحالي وهنا تكمن أهميته القصوى.

قبل الخوض في الإضافة النوعية لهذا الإصدار الجديد، من المهم بمكان التوقف عند الكاتب والظروف المحيطة بإصدار الكتاب. يائير نهورئي هو محام وناشط في مجال الصحافة الاستقصائية، لا سيما في مجال متابعة نشاطات الحركات المسيانية في إسرائيل. وكما يمكننا أن نتوقّع، فإن هذه الحركات لا تتردّد في "معاقبته" عبر استنزاف قواه وموارده المالية من خلال تقديم دعاوى قضائية ضدّه، وكان آخرها دعوى قذف وتشهير رفعها "بطل" الكتاب (الحاخام إيلي سدان) ومطالبته بتعويض يصل إلى مليون شيكل بحجة انتهاك قانون الملكية الفكرية، حيث قام الكاتب بطباعة مقتطفات طويلة لمحاضرات سدان ونشرها. ومن الجدير بالذكر أن الكاتب اختار إصدار كتابه هذا على نفقته الخاصة، بطباعة ذاتية، حيث لم ينشره في دار نشر معينة، وذلك لخشيته من الإملاءات والتدخّلات التي يمكن أن تظهر من طرف دور النشر، لاعتبارات تسويقية أو أيديولوجية وغيرها، كما وضّح لي الكاتب نفسه في محادثة هاتفية معه.

يتمتّع هذا الإصدار الجديد بمساهمتين مركزيتين. تتلخّص الأولى في رصد مواد شفهية لقيادات مركزية

المساهمة الأهم والمحورية للكتاب، فتتمثّل في رصده لمسألة لطالما تردّد الباحثون في الإشارة إليها لعدم توفر مواد موثّقة حولها، وتفيد بوجود مخطّط في تيار الصهيونية الدينية يسعى إلى التغلغل في كافة المؤسّسات الحكومية، لا سيما في الجيش ووزارة التربية والتعليم ومواقع صنع القرار، من أجل إحداث "انقلاب في نظام الحكم"، كما يرد في الكتاب الحالي، وتحقيق الغاية المثلى المتمثّلة في "دولة الشريعة".

تنتمي إلى الجناح المسياني لتيار الصهيونية الدينية، وتتمثّل في دروس دينية يلقيها هؤلاء أمام طلابهم في جمعية "بني عيلي" ومتاحة على موقعها الرسمي. أما جمعية "بني عيلي"، فهي مدرسة دينية في مستوطنة "عيلي" تقوم بتحضير طلابها لمرحلة الخدمة العسكرية وما بعدها، أقامها الحاخام إيلي سدان والحاخام يغئال لفينشطاين في سنة ١٩٨٨، وتحوّلت لاحقًا إلى أحد أذرع وزارة التربية والتعليم عملًا بقانون "قانون المدارس الإعدادية قبل العسكرية" (لسنة ٢٠٠٨)[8] وأنظمة "قانون المدارس الإعدادية قبل العسكرية" (لسنة ٢٠٠٨). يظهر التعريف الآتي في المادة الأولى للقانون: "المدرسة الإعدادية قبل العسكرية" هي "إطار تعليمي معدّ في الأساس للمرشحين لخدمة الأمن وللمكلّفين بالعسكرية يستهدف إعداد المتعلمين فيه لأداء خدمة كاملة في جيش الدفاع الإسرائيلي والتثقيف للمشاركة الاجتماعية والمدنية". تحصل المدرسة بمختلف دوائرها ومستوياتها منذ سن هذا القانون على ميزانيات سنوية هائلة من وزارة التربية والتعليم (١٠ ملايين شيكل سنويًا)، وفق ما جاء في الكتاب. أما في الموقع الرسمي، فلا يمكن معرفة عدد الطلاب الذين يدرسون في هذه المدارس، ولكن إذا عرفنا من نص القانون (المادة ٣، الفرقتان أ وَ ب) أن الوزارة تدفع ٢٣,٥٠٠ شيكل عن كل طالب (تتقاسم هذا العبء مناصفة مع وزارة الدفاع)، ينتج أن عدد طلابها سنويًا يصل إلى نحو ٤٢٥ طالبًا. وتقع مستوطنة "عيلي" في قلب تكتل القرى الفلسطينية في جنوب نابلس ومحيطها (قريوت والساوية واللّبن الشرقية وتلفيت وإسكاكا)، وأقيمت على أراضي بعض هذه القرى، لا سيما قريتي قريوت والساوية، بعد مصادرتها. كما تجدر الإشارة إلى أن مستوطنة "عيلي" تضم كذلك مدارس دينية للجنود وطلاب ما بعد الخدمة العسكرية. كذلك، نشهد أن هذا الصنف من المدارس نشأ منذ منتصف سنة ١٩٦٧، وتمثّل بداية في إقامة مدرسة "حوريب" (حزيران ١٩٦٧) ومدرسة "هكوتل" (حائط المبكى) (تموز ١٩٦٧). وقد بلغ عدد هذا الصنف من المدارس الدينية في السنة الدراسية الماضية (٢٠٢١/٢٠٢٢) ٥٤ مدرسة، منها ٢٤ مدرسة توراتية للبنين وَ ٣٠ مدرسة عامة ومختلطة للبنين والبنات موزّعة على كافة المدن والبلدات اليهودية في إسرائيل. ومن الملاحظ زيادة هائلة للفتيات في هذه المدارس، إذ نشهد زيادة في السنوات الأخيرة تصل إلى ٢١٨٪.

أما المساهمة الأهم والمحورية للكتاب، فتتمثّل في رصده لمسألة لطالما تردّد الباحثون في الإشارة إليها لعدم توفر مواد موثّقة حولها، وتفيد بوجود مخطّط في تيار الصهيونية الدينية يسعى إلى التغلغل في كافة المؤسّسات الحكومية، لا سيما في الجيش ووزارة التربية والتعليم ومواقع صنع القرار، من أجل إحداث "انقلاب في نظام الحكم"، كما يرد في الكتاب الحالي، وتحقيق الغاية المثلى المتمثّلة في "دولة الشريعة". إضافة إلى ذلك التغلغل الملموس في داخل حزب الليكود واحتلاله من الداخل بحيث يتحوّل إلى أداة طيعة بأيديهم. يعي العديد من الباحثين والصحافيّين وعيًا تامًا وجود مثل هذا المخطّط، وإن كان غير مصرّح به، لكن بصماته واضحة للعيان.

هنا تحديدًا تكمن أهمية اختيار دروس دينية متاحة على موقع جمعية "بني عيلي"، لأنها ملقاة أمام طلاب بصورة طبيعية ومتحرّرة من القيود. فعند إجراء المقابلات مع الأشخاص، أو تسجيل النشاطات، كإحدى أدوات البحث، يكون الشخص

الذي تتم مقابلته، أو الجمهور الذي يتم تسجيل نشاطاته، على وعي كامل بأن كلماته أو سلوكياته يتم رصدها وتسجيلها، لهذا يتم التحكّم بما يتم التصريح به وانتقاء الكلمات والسلوكيات بحذر. بخلاف ذلك، عند استخدام دروس أمام الطلاب وتسجيلها بهدف استخدامها لاحقًا لخدمة مجتمع أوسع من الطلاب، يكون المحاضر، وكذلك الطلاب، أكثر تحرّرًا من قيود "الرقابة"، لا سيما والحديث يدور عن جمهور متجانس فكريًا وأيديولوجيًا بدرجة كبيرة، وهي أكثر أدوات البحث العلمي صدقية وتقترب أكثر إلى شكل التخاطب المفتوح والصريح. كذلك، لو علم المحاضر، أو الطلاب، مسبقًا بأن دروسهم سوف تُستخدم لأغراض بحثية وترصد لأغراض غير الأغراض الموضوعة لها مسبقًا لكان يمكن القول حينها إنها أداة لا تختلف كثيرًا عن أداة إجراء المقابلات أو توزيع الاستبيانات.

وفي الحقيقة، كان كاتب هذه المراجعة متابعًا لدروس يومية ونشرات أسبوعية للمدرسة الدينية في مستوطنة بيت إيل منذ سنة ٢٠٠١ وحتى سنة ٢٠٠٤، ولا تزال غالبية هذه المواد متوفرة في الموقع الرسمي للمدرسة.[٩] فقد كان هذا الموقع الأول من نوعه ضمن نشاطات مستوطنات الضفة الغربية وقطاع غزة، وتبعته الكثير من المواقع لمدارس دينية أخرى، كالموقع الرسمي للمدرسة الدينية في البلدة القديمة في القدس "عطيرت يروشاليم"،[١٠] وكل موقع كهذا يضم مئات الدروس الدينية. كذلك، كان كاتب هذه المراجعة متابعًا للبرنامج التلفزيوني "فرشت هشفوع" (القصة الأسبوعية) الذي كان يعرض كل يوم جمعة الساعة ١٦:٠٠ لمدة ساعة كاملة في التلفزيون الإسرائيلي (١٩٩٥-٢٠٠٦)، وكان الحاخام مردخاي إيلون هو ضيف الشرف الدائم فيه.[١١] وأضيف هنا أنه بفضل متابعة هذا البرنامج تحديدًا، اتخذ قرارًا منذ السنوات الأولى بتوسيع آفاقه بالديانة اليهودية، لا سيما تأويلاتها الحديثة واستخدامها لأغراض سياسية وأيديولوجية. النقطة الأكثر إثارة في مثل هذا البرنامج، وكذلك في جميع المحاضرات التي يستشهد بها الكاتب، هو ما يمكننا أن نصطلح عليه تعبير "تحيين" (actual-ization)، ومفاده استخدام مواد معينة (توراتية في حالتنا)، بعد سلخها عن سياقاتها وبيئاتها الأصلية، وإعادة صياغتها من جديد بحيث تتلاءم مع الظرفين الزماني والمكاني الحاليّين المختلفين كليًا عن الظرفين اللذين ظهرت فيهما هذه المواد. ويقف خلف هذا الاستخدام مفهوم التاريخ الدائري الذي يعود على ذاته دومًا. فالتاريخ الديني أو الأسطوري هذا هو دائري بالضرورة، وغير أفقي كما نشهد في فكر الحداثة والتحديث.

فكل قصة أو شخصية توراتية يمكن سردها أو عرضها وكأنها قصة معاصرة وشخصية تعيش بيننا. فحين يتناول الحاخام إيلون أي قصة توراتية، تبدو هامشية وغير مهمة في السياق التوراتي، يمنحها لمحات وعناصر قصصية وأدبية حديثة بحيث تعود إلى الحياة من جديد وتحمل معاني مهمة لنا ولحياتنا في هذا المكان وفي هذا الزمان، إضافة إلى عرضها بصورة رومانسية وكاريزمية تستحوذ على المشاهد والمستمع. والأهم من ذلك كلّه، أن تفاصيل القصة وحبكتها وكيفية عرضها تأتي لخدمة هدف أساس يتلخّص في إقناع المشاهد والمستمع بإنه هو نفسه، هذا المتلقّي الخامل، هو نفسه شريك بصورة فعّالة في القصّة من بدايتها إلى نهايتها. وهنا تندمج شخصية بطل القصة مع شخصية المتلقّي بحيث لا يمكن الفصل بينهما البتة. يخرج المتلقّي من مشاهدة الحلقة بطلًا توراتيًا ويحمل رسالة لإنهاء ما لم ينهه أبطال التوراة القدامى، إضافة طبعًا إلى تصويبه للأخطاء التي ارتكبها السلف، بحيث تصبح قصة منقّحة ومعدّلة وحديثة ملائمة لروح العصر بكافة تفاصيلها ومعانيها. أعتقد أن المتلقّي غير النقدي الذي يستمع إلى رجال الدين هؤلاء، ويشاهد استخداماتهم للغة الجسد ويلامس انفعالاتهم، سيكون هدفًا سهلًا يتم الاستحواذ عليه.

يتألّف الكتاب من ١٣ فصلًا إضافة إلى مقدمة وخاتمة وقائمة المصادر والمراجع (٣٠٦ صفحات من القطع المتوسط). يعتبر الفصل الأول هو جوهر الكتاب وحاوي الطرح المركزي له، حيث يتوقّف بإسهاب عند ملامح مخطّط قلب نظام الحكم في إسرائيل وتفاصيله، وآلياته، والأساليب والسياسات المعتمدة لتحقيقه، كل ذلك يتلخّص في تعبير "منهجية ألقانة". أما ألقانة هذا فهو "ألقانة بن يروحام بن أليهو بن توحى بن صوف" من "رامتايم سوفيم

فهناك مساهمة نوعية للكتاب بصفته تقريرًا، لأنه يوفّر للباحث مادة ومصادر أولية يصعب على كل باحث أن يصل إليها بقواه الذاتية، حيث إن جمعها وترتيبها يحتاج إلى سنوات من الرصد والمتابعة ومئات الساعات من الاستماع إلى هذه الدروس الدينية.

من جبل أفرايم"، كما يخبرنا مطلع سفر صموئيل الأول. كان صموئيل، نجل ألقانة، تقيًا جدًا بخلاف بقية أبناء الشعب ورجالات الدين في عصره. منح الرَّب ألقانة ابنه هذا كثواب على تفانيه في عبادة الرَّب، حيث كان داعية سعى بحزم وإصرار كبيرين إلى تقريب الشعب إلى عبادة الرَّب، فكان أسلوبه في الدعوة هو العمل البطيء والمثابر. يبدأ بشخص واحد، وتكبر الدائرة إلى أن تصل إلى العشرات فمئات حتى ينجح في تقريب جميع الشعب إلى الدين، كما يخبرنا مدراش صموئيل. أما العبرة التي أخذها مؤسّسا جمعية "بني دافيد"، الحاخام إيلي سدان والحاخام يغئال لفينشطاين، فهي أنه يجب اعتماد هذه المنهجية من أجل بلوغ غاية تحويل إسرائيل من دولة "ديمقراطية يهودية" إلى دولة يهودية تكون التوراة دستورها (٢٠-٢١).

كيف يترجم الحاخام إيلي سدان والحاخام يغئال لفينشطاين هذه المنهجية على أرض الواقع في إسرائيل المعاصرة؟ والجواب الصريح الواضح في جميع فصول الكتاب هو: التغلغل في جميع المؤسّسات المركزية في إسرائيل والسعي إلى قيادتها، أهمها مؤسّسة الجيش ووزارات التربية والتعليم والإسكان، وجميع المؤسّسات الأخرى التي تعتبر مؤثّرة على المجتمع ويمكنها المساهمة في دعم التوجهات الاستيطانية وتعزيز الدراسة الدينية على أمل بلوغ الهدف المنشود المتمثّل في قلب نظام الحكم.

يجب لتحقيق هذا الهدف "خلق انقلاب اجتماعي يعتمد على أنموذج عميق وجدّي"، كما يطلعنا سدان على تفاصيل كيفية إجراء هذا الانقلاب (٢٥):

"فالأشخاص المتماثلون (مع هذا الانقلاب) يدفعون به إلى الأمام ككرة ثلج تتّسع شيئًا فشيئًا. (...) كيف يتحقّق هذا الانقلاب الروحاني-الاجتماعي من الأسفل؟ كيف ندفع بالشعب إلى تكرار القول: هل ننضم إليكم؟ فيجيبون بنعم، لنذهب سوية (مدراش صموئيل)؟ والجواب هو أن نحقّق ذلك بواسطة تشكيل فئة من الأشخاص تكبر شيئًا فشيئًا كمًّا وكيفًا، بحيث كل من يشاهدهم يسعى للانضمام إليهم في مسيرتهم".

هذا هو المبدأ الأول والرئيس: تشكيل فئة من النخبة تحمل هذا الهدف، وتتمثّل في إقامة بؤر توراتية تتوزّع في كافة المدن والبلدات الإسرائيلية وتعمل في مختلف المجالات التربوية والتطوير والاستيطان وغيرها (ص ٢٥).[١٢] كيف يتم استغلال الخدمة العسكرية من أجل إحداث تغييرات جوهرية في الجيش وفي المجتمع الإسرائيلي؟ الجواب: أولًا، التأثير على الجيش لتغيير ثقافته وملاءمتها لتوجهات الجنود المتدينين؛ ثانيًا، التأثير على الجندي العلماني باتجاه التقرّب من الدين بتأويلاته الصهيونية؛ ثالثًا، استغلال الجيش من أجل "احتلال قلب المجتمع الإسرائيلي وتغييره"؟ (٢٣٩).

في معرض أحد دروس الحاخام سدان (في سنة ٢٠١٤)، يحاول أن يقرّب هذه المنهجية إلى قلوب الطلاب، فيخاطبهم بالكلمات الآتية:

قامت ١٢ أسرة هنا (مستوطنة عيلي) بتنظيم أنفسها من أجل إقامة بلدة جديدة في النقب (...) وهنالك ٢٠ أسرة أقامت بلدة في وادي عارة (المقصود مستوطنة حريش الجديدة) (...)

أنتـم تعلمـون بوجـود بـؤر لأغـراض محـدّدة. في اللـد وأور عكيفـا، وفي عـشرات الأماكـن الأخـرى في أنحـاء البـلاد، هنـاك عـشرات مثـل هـذه البـؤر. هنـاك هـدف جليـل يتمثّـل في العمـل في حقـل التربيـة والتعليـم. نعـم! وقـد بلـغ الأمـر أن انتقـل العديـد مـن خريجينـا إلى تـل أبيـب للعمـل في التربيـة والتعليـم، لأن هـذا الحقـل يعتـبر مسـتقبل الدولـة (٢٦).

يستطرد سدان فيقول:

أريـد أن أرى ألفًـا أو ألفـين مـن الخريجـين (مـن مدرسـة "بنـي عيـلي") مشـبعين بالشريعـة والتقـوى بـكل معنـى الكلمـة، يتوزّعـون في جميـع أنحـاء البـلاد ويحتلّـون المواقـع المفتاحيـة في كل مـكان، في كل حقـل، فيقومـون بالعمـل بـروح الشريعـة، حينهـا سـتنجح منهجيـة ألقانـة (...) وبالتـالي فـإن هـذا سـيتحقّق بفضـل الجمـع بـين الكيفيـة والكميـة. ليـس لدينـا كميـة كافيـة (مـن الخريجـين) ولا بالجـودة المطلـوب لدينـا مـا يكفـي، لهـذا علينـا بـذل الجهـود. تعزيـز الكميـة والكيفيـة. أيـن تكمـن نقطـة ضعفنـا؟ هنـا، في هـذه الغرفـة (٢٦).

إضافـة إلى "الكميـة والكيفيـة"، كيـف يمكـن الوصول إلى أن يحتـل خريجـو مدرسـة "بنـي عيـلي" "المواقـع المفتاحيـة" في مؤسّسـات الدولـة؟ يخبرنـا أحـد المدرسـين، زميـل سـدان، وهـو الحاخـام أوفـير ولاس، أن أحـد الأدوات تكمـن في اسـتخدام المحسـوبية: "يجـب تأهيـل أشـخاص عمليّـين لتحقيـق أهـداف قوميـة في المجـالات الاجتماعيـة الاقتصاديـة ولـكل حقـل عمـلي آخـر". ويوضّـح ذلـك في درس آخـر (بعنـوان: الفسـاد، والرشـوة واسـتخدام المحسـوبيات في القطـاع العـام)، فيقـول: "في ظـل الواقـع القائـم في القطـاع العـام، مسـموح لا بـل وفـرض علينـا اسـتخدام الفسـاد والرشـوة واسـتخدام المحسـوبيات". لمـاذا؟ لأن هنـاك ظرفـين يكمّـل الواحـد منهمـا الآخـر. الأول، هـو أن القطـاع العـام يعانـي مـن التسـييس، ولهـذا: "أنـت تفهـم مـن تلقـاء نفسـك أن الجميـع يسـتخدمون المحسـوبيات، وأنـت تعلـم كذلـك أن الكفـة لـن تميـل إلى صالحـك إذا لـم تسـتخدم المحسـوبية. لهـذا يُسـمح لـك اسـتخدامها" (ص ٢٧).

أمـا الظـرف الثانـي فيتلخّـص في "أنـك تسـتحق ذلـك بالفعـل"، لماذا؟

لأنـك تعلـم أنـه ليـس هنـاك أشـخاص آخـرون مـن مدرسـتك، فتقـوم بصـورة عفويـة بدفـع أجنـدة تـرى بهـا، بحسـب رأيـك ورأي رجـال الديـن الذيـن تعتمـد عليهـم، وسـيلة لإدارة الدولـة اسـتنادًا إلى الشريعـة، فتعـزّز حكـم الشريعـة وقيمهـا أكثـر فأكثـر (في عمـل المؤسّسـة)، كمـا نفعـل ذلـك نحـن كذلـك هنـا في هـذه المدرسـة (...) فبصـورة عفويـة تـدرك أنـك الأفضـل، أو أنـك أقـدر الأشـخاص عـلى فعـل ذلـك حاليًـا" (ص ٢٧). ويضيـف مـدرّس آخـر للطـلاب القـول بـأن "المهنيـة مهمـة بالطبـع ولكـن عالـم القيـم أهـم، هـو عالـم الأخـلاق والتقـوى.

أنـوّه خشـية الانخـداع بلفظـة "أخـلاق"، فهـو لا يريـد الأخـلاق العالميـة أو الاجتماعيـة أو الأساسـية المتعـارف عليهـا في غالبيـة المجتمعـات، فبرأيـه كمـا هـو رأي العديديـن المنتشريـن في مثـل هـذه التيـارات الدينيـة، فـإن الأشـخاص غـير المتدينـين بالطريقـة نفسـها ولا يحملـون التأويـلات نفسـها لا أخـلاق لهـم البتـة، فهـم يعيشـون داخـل كذبـة كبـيرة توهمهـم بأنهـم سـعداء أو مثقفـون أو متحـرّرون ولكنهـم في الواقـع عبيـد يفتقـرون إلى أدنـى القيـم الأخلاقيـة. لهـذا، فإنـه يريـد الأخـلاق التوراتيـة والدينيـة كيفمـا يفهمهـا هـو، وهـذا هـو موضـوع الفصـل الثانـي: العلمانـي والعلمانيـة (٣٥-٤٧). وقـد عـبّر عـن ذلـك أحـد المدرّسـين في هـذه المدرسـة بقولـه: "لقـد تلقينـا التـوراة مـن السـماء، مـن هنـاك فقـط، ومـن هنـاك فقـط نسـتمدّ الحقيقـة والأخـلاق والمقـدّس" (١٩٥).

مـا هـي نظـرة هـذه الشريحـة مـن الصهيونيـة الدينيـة إلى العلمانيّـين ومسـاهمتهم في إنشـاء دولـة إسرائيـل؟ الموضـوع مركّـب، لكنـه يسـتند بشـكل خـاص إلى اللاهـوت السـياسي الـذي طـوّره أبراهـام كـوك، المؤسّـس الحقيقـي والأهـم لهـذا التيـار. وفـق هـذا اللاهـوت فـإن هنـاك جوهـرًا مقدّسًـا متأصّلًا في كل

يهـودي وينتقـل بالوراثـة، ولكـن تكسـوه قـشرة تكـون أحيانًـا رخـوة وأحيانًـا تكـون قاسـية، وهـي تعبـير مجـازي عـن التأثـيرات الخارجيـة الناتجـة عـن مخالطـة غـير اليهـود وثقافاتهـم. فالذيـن تتغلّـب قشرتهم القاسـية عـلى جوهرهـم مـن اليهـود هـم أولئـك اليهـود العلمانيون الذيـن يعرقلون مـشروع "إعـادة المجـد التليـد" المتمثّل في "إعـادة بنـاء مملكـة إسرائيـل القديمـة مـن جديـد عـلى أسـس توراتيـة". وفي تأويـل ثـان، إلى جانـب الجوهـر اليهـودي المقـدّس، هنـاك "الاختيـار الحـر" لـكل فـرد يهـودي، يختـار "أخلاقياتـه" وسـلوكه (وهـو تعبـير آخـر للتأثـيرات الخارجيـة غـير اليهوديـة). الحالـة المثلى هـي حـين ينتـج انسـجام تـام بـين هـذا الجوهـر وبـين الاختيـار الحـر، هـذه هـي هويـة "اليهـودي الأصيلـة"، السـاعية، كمـا يخبرنـا أحـد أسـاتذة مدرسـة "عيـلي": "إلى بنـاء الهيـكل. هـذا هـو هدفنـا. إننـا نحـارب مـن أجـل إعـادة السـكينة الإلهيـة إلى صهيـون. نسـعى إلى أن تظهـر التـوراة بكاملهـا. فنحـن لا نحـارب مـن أجـل الحفـاظ عـلى الهـدوء عـلى الحـدود الجنوبيـة فقـط. بـل نرغـب بـأن الـشرّ بكاملـه كانقشـاع الدخـان، لكي تسـود سـلطة الـرَّب، لتظهـر ملكـوت الـرَّب عـلى وجـه الأرض" (٥٤، كذلـك في ٦٢). أمـا حـين نحصـل عـلى تنافـر بينهمـا ينتـج لنـا عمليًـا هويـة يهوديـة "مشـوّهة"، نحصـل حينهـا عـلى "خونـة" مـن داخـل اليهـود يعتـبرون "سـكّينًا في ظهـر الأمـة" (٣٦-٤٧)، وهـو موضـوع الفصـل الثالـث أيضًـا (٤٨-٦٣). وفي تأويـل آخـر، يتمتّـع بنـو البـشر بنفسـين، نفـس بهيميـة ونفـس ربّانيـة. النفـس البهيميـة مهمـة جـدًا لأنهـا مسـؤولة عـن الأبعـاد التقنيـة في حياتنـا، ولكـن تجذبنـا هـذه النفـس إلى الأسـفل، تنحـط أهدافنـا لتركّـز عـلى الأمـور الدنيويـة فحسـب. أمـا النفـس الربّانيـة، وهـي النفـس السـائدة بـين اليهـود لأسـباب وراثيـة ولاهوتيـة، فإنهـا تسـمو بنـا دومًـا إلى الأعـلى لنهتـم بأمورنـا الروحانيـة. وخلاصـة الأمـر أن إسرائيـل والصهيونيـة وفـق هـذا التأويـل همـا مـن بـين أدوات النفـس البهيميـة هـذه فقـط، فهـي مجـرد أدوات لخدمـة النفـس الرَّبانيـة (٥٥).

المثير جـدًا في فكـر أبراهـام كـوك، هـي تلـك الجدليـة التـي تميّـز لاهوتـه، والتـي تعتـبر الركيـزة التـي يسـتند إليهـا هـذا التيـار الـذي يتوقـف الكتـاب الحـالي بصـدد مناقشـة أفـكاره. ينتـج مـن لاهـوت كـوك أنـه لتحقيـق الرسـالة الإلهيـة التـي يحملهـا اليهـود، يتعـيّن عليهـم الاسـتعانة بالقشـور والقـوى العلمانيـة، كالعلـوم والتكنولوجيـا وكل مـا هـو عـصري، والصهيونيـة ومؤسّسـاتها تعتـبر جـزءًا مركزيًـا مـن هـذه القشـور، أو "الحمـار الـذي يمتطيـه المسـيح". فينظـر هـذا التيـار إلى الصهيونيـة وإسرائيـل والعلـوم وكل مـا هـو حديـث بصفتهـا أدوات فقـط تسـاعد في تحقيـق الغايـة المقدّسـة المنشـودة.

يضيـق بنـا المجـال هنـا لاسـتعراض مضامـين بقيـة الفصـول الأخـرى للكتـاب، لكننـا سـنتوقف عنـد بعـض مـا جـاء فيـه بخصـوص العـرب والمسـلمين والمسـيحيّين واليهـود الشرقيّـين والمذكـورة في الفصلـين السـادس (مـا هـي اليهوديـة؟) السـابع (فلسـطينيون وأقليـات) بشـكل رئيـس. إضافـة إلى التصـوّرات الاسـتشراقية الفظّـة الكثـيرة في الكتـاب، كتعبـير "الـشرق الأوسـط المخبـول" (١٠٤)، تشـير العديـد مـن هـذه الـدروس، بـأن الحداثـة بثقافتهـا وأخلاقياتهـا إنمـا هـي مسـيحية بجوهرهـا تنتـشر بصفتهـا ثقافـة علمانيـة، وهـو جوهـر لا تقـل خطورتـه عـن "السـمّ القاتـل" واليهـود العلمانيـون واليسـار الصهيونـي يعتـبرون عمـلاءه (١٠٥-١٠٩). أمـا يهوديـة الـشرق "الدخيلـة عـلى الواقـع اليهـودي"، بحسـب أحـد المدرّسـين، فهـي يهوديـة مشـوّهة تأثّـرت بثقافـة الخرافـات و"الأرواح والشـياطين والسـحر" الإسـلامية (١١٧).

أمـا بخصـوص العـرب والمسـلمين، فتتغـذّى الملامـح الرئيسـة لتصـوّرات هـؤلاء المدرّسـين مـن قصـة هاجـر وإسـماعيل بشـكل واضـح وملخّصهـا أنـه يجـب أن يكـون العـرب والمسـلمون عبيـدًا لـدى اليهـود، لا لتعزيـز مصالـح اليهـود والحفـاظ عـلى فوقيتهـم وسـيادتهم، بـل مـن أجـل مسـتقبل ناجـح للعـرب والمسـلمين، فهـؤلاء لا عقـل لهـم، فهـم يفكـرون بصـورة مشـوّهة لأن "جيناتهـم مريضـة" و"جوهرهـم مشـوّه" و"لا قـدرة لـه عـلى لتغلـب عـلى النزعـات المتأصّلـة فيهـم". لهـذا، لمصلحتهـم هـم عليهـم الخضـوع لسـيطرة اليهـود عمومًـا وإسرائيـل خصوصًـا، لضمـان ازدهـار مسـتقبلهم! (١٢٤-١٢٦).

نتوقـف بإيجـاز عنـد بعـض النقـد للكتـاب. فهـو بالمجمـل لي سـوى تقريـر يعـرض أمـام القـارئ اقتباسـات طويلـة مأخـوذة مـن دروس دينيـة لمدرّسـين

في إحـدى المـدارس الدينيـة بصفتهـا حالـة دراسـية. وبهـذا المعنـى، فالكتـاب ليـس بحثًـا أكاديميًـا، لا يوفّـر لنـا الأرضيـة التـي تغـذّي المضامـين التـي يعرضهـا، ولا الإطـار تاريخـي الـذي مـن شـأنه توضيـح أبعـاد عديدة للمضامـين، ولا الإطـار النظـري الـذي مـن المفـترض أن يؤطّـر مضامـين الكتـاب وينظّمهـا مـن خـلال اسـتخدام الاصطلاحـات النظريـة، الأمـر الـذي يمكـن أن يوضّـح العديـد مـن الجوانـب الـواردة فيـه. كذلـك، يتجاهـل هذا الكتـاب الكـم الكبـير مـن الأبحـاث والدراسـات المنشـورة بالعبريـة والإنكليزيـة بشـكل رئيـس، وبالتـالي فهـو لـم يسـتفد منهـا ولـم يناقشـها لتوضيـح نقـاط ضعفهـا ومسـاهمته في تصويـب نقـاط الضعـف هذه. ولكـن، على الرغـم مـن كل ذلـك، فهنـاك مسـاهمة نوعيـة للكتـاب بصفتـه تقريـرًا، لأنـه يوفّـر للباحـث مـادة ومصـادر أوليـة يصعـب عـلى كل باحـث أن يصـل إليهـا بقـواه الذاتيـة، حيـث إن جمعهـا وترتيبهـا يحتـاج إلى سـنوات مـن الرصـد والمتابعـة ومئـات السـاعات مـن الاسـتماع إلى هـذه الـدروس الدينيـة.

نشـير في الختـام إلى ملاحظـة مهمـة بخصـوص تجاهـل الجانبـين الإسرائيـلي والفلسـطيني هـذا التطـوّر المسـتمر منـذ عقـود عـدّة عـلى المشـهد الإسرائيـلي والـذي سـيترك بـلا شـك إسـقاطات عـدة بعيـدة المـدى عـلى طبيعـة الـصراع العربي-الفلسـطيني الإسرائيـلي. يبـدو أن هنـاك اتفاقًـا ضمنيًـا إسرائيليًا-عربيًـا-فلسـطينيًا، وربمـا دوليًـا أيضًـا، لتجاهـل هـذا التطـوّر وتسـليط الضـوء عليـه، فـكلا الجانبـين، لا سـيما مـا يطلـق عليـه تعبـير "اليسـار" الإسرائيـلي والمهيمنـين عـلى خطـاب السـلطة الفلسـطينية، يتخوّفـان مـن الإشـارة إلى تحـوّل طبيعـة الـصراع إلى صراع دينـي لخطـورة الأمـر، فالخطـاب الدينـي لا يقتـصر عـلى تلـك التيـارات والحـركات الدينيـة اليهوديـة، بـل هـو هيمـن ولا يـزال عـلى معظـم أحـزاب اليمـين، لا سـيما عـلى حـزب الليكـود. كذلـك، تـرى السـلطة الفلسـطينية أن الإشـارة إلى هـذا التطـوّر مـن شـأنه أن يضعـف خطابهـا السـياسي ويعـزّز خطابـات تيـارات وحـركات معارضـة لهـا. لهـذا نلمـس المصلحـة المشـتركة بـين الطرفـين تجاهـل هـذا التطـوّر، ولكـن مـن البديهـي الافـتراض أن تجاهلـه لا يعنـي غيابـه أو إضعافـه، بـل هـو في تطـوّر دائـم ومسـتمر منـذ أربعـة عقـود عـلى أقـل تقديـر، وهنـاك ضرورة بالغـة لتطويـر خطـاب عربي-فلسـطيني بمقـدوره التعامـل مـع هـذا التطـوّر بصـورة مجديـة.

الهوامش

١ داني روبنشتاين، غوش إيمونيم (عمان: دار الجليل للنشر، ١٩٨٣ [صدر بداية بالعبرية في سنة ١٩٨٢]).

٢ جدعون أران، من صهيونية دينية إلى دين صهيوني (أطروحة دكتوراة، الجامعة العبرية في القدس، ١٩٨٧).

٣ يائير شيلغ، المتدينون الجدد، رام الله مدار، ٢٠٠٢ (صدر بداية بالعبرية في سنة ٢٠٠٠).

٤ نبيه بشير، عودة إلى التاريخ المقدّس: الحريدية والصهيونية، دمشق: قدمس، ٢٠٠٥؛ نفس الكاتب، جدلية الديني السياسي في إسرائيل (رام الله: مدار، ٢٠٠٦).

٥ حول الدور الهائل لهذه الوزارة في إقامة المستوطنات وتعزيزها، يُنظر: إيرز مغور، "الدولة، السوق، والمستوطنات: سياسة وزارة البناء والإسكان والانتقال من البؤر المسيحانية للنمو المديني في مطلع الثمانينيات"، سوتسيولوجيا يسرائيليت، العدد ١٦ (٢٠١٥)، ١٤٠- ١٦٧.

٦ زئيف دروري، "المنطقة الفاصلة بين الكُمّة والبيريه: كيف يتعامل الجيش الإسرائيلي مع عملية التديّن؟"، ضمن كتاب رؤوبين غال وتمير ليبل (محرّران)، ما بين الكُمّة والبيريه: دين وسياسة وجيش في إسرائيل، دار النشر مودن م.ض، بن شيمن، ٢٠١٢، ١١٥- ١٥٠، ١٣١- ١٣٢.

٧ نبيه بشير، "صهيونية التيار الديني الاستيطاني: السياق التاريخي، الأيديولوجيا، والمؤسّسات الرسمية في إسرائيل"، قضايا إسرائيلية، العدد ٧٩ (٢٠٢٠)، ٧٥-٩٥.

٨ نشرت صيغة القانون "قانون المدارس الإعدادية قبل العسكرية لسنة ٥٧٦٨- ٢٠١٨" يوم ١٢ آب ٢٠٠٨ ضمن الوقائع الإسرائيلية، كتاب القوانين رقم ٢١٨٢، ص ١٢٨٧-١٢٨٨ (بالعربية)، وصدر مشروع قانون الكنيست ونشر ضمن مشاريع القوانين رقم ٢٤٤ (لسنة ٢٠٠٨). وتجدر الإشارة إلى أنه في أعقاب استحداث وزارة جديدة تحمل اسم "وزارة الاستيطان" (أيار ٢٠٢٠) انتقلت هذه المدارس من وزارة التربية والتعليم إلى وزارة الاستيطان. ينظر التعديل الثاني للقانون الذي يحوّل المسؤولية عن هذه المدارس إلى وزارة الاستيطان (التشريعات الرسمية، كتاب القوانين رقم ٢٨٧٨ - ١٥ كانون الأول/ ٢٠٢٠- ص ١٦٠ (بالعربية).

٩ يُنظر: https://www.yeshiva.org.il/midrash.

١٠ يُنظر: https://ateret.org.il. وهي مدرسة للدراسات العليا أنشأتها الجمعية الاستيطانية "عطيرت كوهنيم" في سنة ١٩٨٣ في قلب البلدة القديمة في القدس لتشجيع الاستيطان في البلدة القديمة؛ يُنظر كذلك المواقع الرسمية الآتية لأهم هذه المدارس الدينية العسكرية والمدنية: (مدرسة حورب التابعة لمؤسّسة "حورب" التربوية (المقامة منذ ١٩٣٤ ومركزها في القدس): http://horev.co.il)؛ مدرسة "أور عتسيون" للدراسات العليا (منذ سنة ١٩٧٧): http://oretzion.com؛ والمدرسة الدينية العسكرية (يشيبت هسدر) "هكوتل" (آب ١٩٦٧): www.hakotel.org.il. وجميع هذه المدارس والمعاهد تابعة لأكثر الأطراف تعصبًا في تيار الصهيونية الدينية. أما المدرسة الدينية "يشيبت هراب"، التي تعتبر "حاملة لواء الصهيونية الدينية"، والتي أقامها الحاخامأبراهام كوك الشهير في سنة ١٩٠٩ في يافا وأغلقت بعد بضع سنوات، وأعيد إقامتها من جديد في سنة ١٩٢٤ بمحاذاة شارع يافا في القدس وقريبة من أسوار البلدة القديمة، فقد تخرّج منها جميع غلاة الحاخامات الصهاينة المعروفين في أيامها، وهم الذين أسّسوا الأحزاب والمدارس الدينية والمؤسّسات التربوية والثقافية والاستيطانية والمدارس العسكرية الدينية التابعة لتيار الصهيونية الدينية (وموقعها الرسمي: https://mercazharav.org.il).

١١ مردخاي (موطي) إيلون، هو نجل نائب رئيس سابق للمحكمة الإسرائيلية العليا وقاضيًا فيها (١٩٧٧-١٩٩٣). سطع نجم مردخاي إيلون منذ مطلع التسعينيات بصفته من ألمع الخطباء في تيار الصهيونية الدينية، وربما من أخطرهم، لأنه كان يقوم بإسقاط تفسيراته للتوراة وآثار الحاخامات السلف (حاخامات المشناه والتلمود) على الواقع المعاصر، ويصوّر هذه التفسيرات على أنها فوق تاريخية، قائمة منذ الأزل وباقية إلى الأبد، لا تتبدّل ولا تتغيّر. وهنا يكمن ربما سرّ شعبيته البالغة بين فئات الشبيبة، فهو يتحدث بلغتهم، ويصوّر لهم حياتهم كعاكسة لقصص توراتية، ويمنحهم الشعور بصفتهم "أبطالًا" توراتيّين، مساهمين لإعادة بناء الأساطير والقصص التوراتية من جديد. استضافه البرنامج التلفزيوني "فرشت هشفوع" (القصة الأسبوعية) على مدار أحدى عشرة سنة متواصلة (١٩٩٥-٢٠٠٦)، وكان برنامجًا ناجحًا جدًا. شغل منصب رئيس المدرسة الثانوية الدينية "حريب" في الشطر الغربي من القدس، ورئيس المدرسة الدينية العسكرية (يشيبت هسدر) "هكوتل" (حائط المبكى) في البلدة القديمة في القدس (٢٠٠٢-٢٠٠٦)؛ ومؤسّس جمعية "مبريشيت" لأغراض تربوية منهجية وغير منهجية تركّز على التعليم الديني ولكن تعتمد مناهج دراسية معاصرة وغير تقليدية تستند إلى كشف الطلاب لتجارب مشاعرية تدمج بين القصص والمقولات التوراتية وبين الحياة المعاصرة واحتياجاتها. أما في تموز ٢٠٠٥، فقد بدأت مجموعة من الحاخامات بمعالجة بعض الشكاوى التي قدّمها بعض طلابه من الفتية والأطفال بالتحرّش الجنسي بهم واغتصاب بعضهم، واستمرت هذه الشكاوى بالتدفّق على مدار سنين، حتى سنة ٢٠١٣ إذ أدين في المحاكم الإسرائيلية بالتهم الموجّهة ضدّه.

١٢ حول هذه المسألة، يُنظر: نبيه بشير، "التهويد المستحدث - الاستطباق الإثني بقيادة الدولة في عصر النيوليبرالية - مراجعة أطروحة دكتوراه: يعيل شمرياهو يشورون، سياسة استيطان البؤر (التوراتية) في بلدات الأطراف والمدن المختلطة في إسرائيل: ما بين القومية والنيوليبرالية، أطروحة دكتوراه، قسم السياسة العامة والإدارة، كلية الإدارة والأعمال، جامعة بن غوريون في النقب (٢٠٢١)"، قضايا إسرائيلية ٨٣ (خريف ٢٠٢١)، ٧٠-٨٣.